مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 01 – جانفي 2022
الصفحات: 271- 283

تفاعل الكتابة مع الألم في شعر أديب كمال الدين

The Interaction of Writing with Pain in Adib Kamel el-Din's Poetry

د. خولة ميسي*
جامعة محمد الشريف مساعدية- سوق أهراس، الجزائر
k.missi@univ-soukahras.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/24 تاريخ القبول: 2022/01/31 تاريخ النشر: 2022/01/31

ملخص البحث:

الشاعر أديب كمال الدين من الشعراء الذين ذاع صيتهم خلال سبعينات القرن العشرين، فلغته الاستثنائية المختزلة لمواقفه سربلت كلماته بطاقاتٍ رمزية كامنة في مدلولات زئبقية، سعيت في هذا المقال لملامسة بعض تهويمات الشاعر على مستوى حروفه و كلماته الشعرية، وقد اخترت استنطاق تجربته الفكرية و الفنية عن ألم الإنسان، لما لمسناه من رموز و إيحاءات ظاهرة و ضمنية في قصائده تحيل على عمق مأساته الشعرية ، و قد وقفنا في معظم قصائده -نماذج مختارة من المجلد الثالث والرابع –على تفاعل خلاق بين الكتابة و الألم، تنح بنا إلى ما يريد الشاعر، و ما يصبو إليه من نقل تصوراته عن الآلام الفردية أو الجماعية و طرق الوعي بها؛ فما هي هذه التصورات؟ و إلى أي مدى تفاعل شعره مع تجاربه المؤلمة؟

الكلمات المفتاحية: أديب كمال الدين ، الشعر المعاصر، الكتابة ، الألم.

Abstract:

The poet Adib Kamel el-Din is one of the poets who became famous during the seventies of the twentieth century. His succinct and exclusive language made his poetry in harmony with the symbolic dimension of his pain. This article reveals the poet's hermetic microcosm through his characters and mystic words. I endeavoured to reveal his implicit-explicit symbols and insinuations in his poems inherent to the depth of his poetic tragedy. Actually, he aspires to convey his perceptions of individual or collective pain and ways to be aware of it; then, what are these perceptions? And to what extent did his poetry interact with his painful experiences?

Keywords: Adib Kamel El-Din, contemporary poetry, writing, pain.

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

الشاعر أديب كمال الدين من الشعراء الأفذاذ الذي جمع شعره إشارات عدة متباينة و خلاقة، فذاع صيته و علا ذكره خلال سبعينات القرن العشرين، لما خص به دون سواه من شعراء القصيدة الحديثة، فلغته الاستثنائية المختزلة لمواقفه الواعية لما يجري من حوله سربلت كلماته بطاقات رمزية كامنة في مدلولات زئبقية تكاد تكون سراب، كلما سعيت لإدراكها تتراءى لك معان أخرى و أخرى ... .

و قد سعت هذه المقاربة لملامسة بعض تهويمات الشاعر على مستوى حروفه و كلماته الشعرية، و قد اخترت استنطاق تجربته الفكرية و الفنية عن ألم الإنسان، و هو شعور يقع في النطاق الذي يتوطن فيه الحسي و يشتغل فيه التعبير الرمزي، و هذا ما يجعل قصائده تشبه في مرموزاتها البلورة التي تجمع شتات الضوء المحيط بالمكان، و قد وقفنا في معظم قصائد الشاعر -نماذج من قصائده المختارة من المجلد الثالث و الرابع –على تفاعل خلاق بين الكتابة و الألم عبر شجرة حروفه، تنح بنا إلى ما يريد الشاعر، و ما يصبو إليه من نقل تصوراته عن الآلام الفردية أو الجماعية و طرق الوعي بها ؛ فهل نجح أديب كمال الدين في صناعة لغة تقول الألم؟ و ما هي هذه التصورات المؤلمة التي يحاول الشاعر التعبير عنها؟

و قد جاءت عناوين المقال الكبرى و الفرعية لتقارب شعر أديب كمال الدين من وجهة مختلفة، سعينا من خلال هذه المقاربة استخلاص الرؤية الفكرية و الفنية لألم الإنسان في أعمال الشاعر، وهو طرح لم يسبق إليه، فقد قُرأ شعره من وجهة صوفية، و تم توضيح دلالته التناصية، و حملت حروفيته على تأويلات شتى ...، و نحن في هذا المقال سنعنى بالحديث عن تفاعل الكتابة مع الألم في شعره.

1- الكتابة دفع لبؤس الألم:

الألم شعور طبيعي، يحسه الإنسان كلما ضاقت نفسه و تكدر صفوه، كما أنه تجربة وثيقة الصلة بالعزلة و الغربة و الهجران ؛ و هي طقوس شعورية يمارسها من تعرض لفخ السعادة الموهمة، فينجم عنها صدمة نفسية تتراوح في حدتها و درجة قوتها – على حسب وعي المسلط عليه هذا الألم، و حجم الكارثة الواقع فيها- بين الانطواء على الذات و العنف التشاؤمي.

و لأن الألم يرتبط بالوجود الإنساني و بالبعد النفسي السيكولوجي، الذي يستشعر العمق الموحش للوجود،تترجم في سلوكيات الفرد أو الجماعة وتقولها مختلف الخطابات؛ و لما كان المبدع إنسان بطبعه ، فليس بمنأى عن هكذا شعور ، و الشاعر كمال الدين من الشعراء الذين علت صيحاتهم وآهاتهم النفسية المفكر فيها، و رددتها ذاته الواعية بالعنف الحاصل حوله و الواقع عليه باعتباره فرد من المجتمع، رددتها لغته الشعرية، التي عبر فيها عن تصوراته عن وجود الألم كتجربة شعورية يختبر فيها قيمه العليا و رموزه المقدسة، التي تجعل للوجود قيمة، ليحول من تصوراته عن المعاناة و الألم والبلاء و الرجاء و العذاب و الفناء و الخوف، ... إلى حروف و كلمات تفسر حقيقة العالم الكائن وسط الوجود، و خاصة إذا عرفنا أن اللغة «تكشف لنا –في الخلاء- عن التراكيب الرئيسية لجسمنا للغير، بينما الجسم الموجد لا يمكن التعبير عنه، تدعونا إلى التخلي تماما عن مهمتنا المزعومة للغير .و نذعن لرؤيتنا بواسطة عيون الغير؛ و معنى هذا أننا نحاول أن نعرف وجودنا بكشوف اللغة.»[1] فكل محاولة منا

لبناء حقيقة مؤثرة في العالم- و هو تحدي ترفعه الإرادة الإنسانية- يجد الشاعر/الإنسان نفسه في مواجهة مع الإحساس بالألم بكل تصوراته و تمثلاته الفكرية والفنية و الرمزية لبناء وجود قائم على الأمل.

يجد الشاعر أديب كمال نفسه في موضع لا يحسد عليه ، فقد اتجه بموهبته في قول الشعر للتنفيس عن ذاته المتألمة، ففي سعيه المحموم من أجل الخلاص والتحرر، يقف الشاعر مستلب الذات و الإرادة أمام قلمه الذي يأبى إلا التعبير عن عالمه الموضوعي المتخيل و المتصور ، فلا يجد الراحة إلا من خلال التمثل بآلامه الواقعة في نفسه و السارية بجسمه كالمخدر القوي الذي يشل حركة جسمه و تفكيره المستلب الإرادة، عله يجد لذاته بعض السكينة بمشاركة الآخرين أحزانه؛ يقول الشاعر:

«توقف الحرف عن تذكيري بشبابي المدمّى
و طفولتي الحافية
و حبيباتي الخائنات و الجاحدات
و أصدقائي الأوغاد و المنفيين و السذّج
و قصائدي التي كتبتها كي لا أبكي
مثل يتيم بباب الملجأ
أو مثل مجنون يرميه الصبية بالحجارة
كي يضحكوا و يبددوا الوقت
أو مثل شحاذ سوق السكارى رغيفه
كي تكتمل نشوتهم
و يكتمل موت الشحاذ
توقف الحرف عن كل ذلك.
حينها كانت الشمس مشرقة كما ينبغي. »[2]

نستطيع أن نقع على نوعين من ألم الكتابة عند أديب كمال الدين، ألم جسدي و ألم روحي، نلمسها –تقريبا- عبر أغلب قصائده، فقد عانى في حياته مرارة الغربة و ألم فراق الأهل و الأحبة و الوطن، كما مزقت نفسه نزعة ذاتية روحية لهجر عالمه المعتاد إلى عالم تستكن إليه ذاته، ليجد نفسه في عزلة روحية حتى عن ذاته الممزقة و المتألمة؛ فهو يقول:

«أوقفني في موقف الغربة
و قال: الغربة تبدأ من الروح
فحذار من غربة الروح يا عبدي
ثم تنتقل إلى القلب
ثم إلى اللسان
ثم إلى الأصابع
ثم إلى الجسد»[3]

فالشاعر يعي تماما مصدر بلائه و مسبباته، فهو على الأغلب و عيه التام بما يقع عليه من عدوان ثلاثي مباغت يمزق روحه و جسمه، تمثل في الغربة والسأم و الموت، فالشكوى نابعة من سخطه الدفين على الطبيعة الإنسانية القاسية و العنيفة، فالسخط جالب للبعاد، و غربة الأوطان اجتذاب للحزن؛ والحزن موت نفسي بطيء، يقول أديب كمال:

«أنا الغريب،
لا أرض لي و لا هدف،
لا وجهة و لا رغبة و لا قرار.
جربت الحكمة و الغيب و النساء
و اللهو و الغنى و الحروب.
فلم أجد أي شيء يعينني
على عذابي المقيم و ضياعي المكتوب.»[4]

فحالة الضياع النفسي التي يعيشها الشاعر، مردها انفعاله الحسي المرهف بتجاربه المؤلمة، فمع «كل خبرة ألم محفورة في الذاكرة بكل تفاصيلها،»[5] و كذا عزلته الموحشة عن الأقران والأحباب والوطن، و الضجر من تفاهة العالم وعبثيته، وسأمه الشديد منه إلى حالة محاصرة الروح لدرجة إزهاقها؛ و خاصة أنه حاول أكثر من مرة الخروج من

قوقعة الذات على ذاتيتها، فلم يجد لها أثر سوى طيف يعكس قبح العالم و قسوته. يقول:

«ثم صمت الغريب طويلا و قال:

أيها النبع،

هل عندك دواء للسأم؟

قال النبع: لا

و هل عندك دواء للغربة؟

قال النبع: لا.

و هل عندك دواء للموت؟

قال النبع: لا

فضحك الغريب ثانية

حتى اغرورقت عيناه بالدموع.»[6]

و لما كانت فعل العزلة ردة فعل عكسية، على فعل التعنيف النفسي الذي وقع ضحيته الشاعر ، فحروفه كانت ملاذه للخروج من هذه العزلة ، فمواقفه الحرفية تبعث على كثير من الأمل و التفاؤل؛ لأنه يخرج ذاته من وضعها المأساوي الذي علق فيه، فمن خلال وعيه بإخفاق الذات في إقامة علاقة مثمرة مع الآخر الاجتماعي في العالم الدنيوي، فباب العلوي تبقى مفتوحة لجميع الناس، يقول الشاعر في قصيدته (موقف الرحيل):

«أوقفني في موقف الرحيل

و قال: من رحلة إلى رحلة

ستقضي العمر يا عبدي.

فان ودعت ضياء

فسترى ضياء آخر.

و إن انقلبت بك السفينة

فستنقذك سفينة أخرى.»[7]

و لعل هذا الصراع النفسي، الذي يجري داخل ذات الشاعر، قد قلل من حدة خوفه و فزعه من ما ستؤول إليه الأمور، لتتهاوى أمامه جميع هواجسه المفزعة من المستقبل، التي اعتقد أنها تحكمت بقدره الدنيوي المحتوم، لتلوح له في الأفق بشائر فجر جديد، و بنفحات إيمانية تختفي مخاوفه عن الآخر المخادع، ليختلق له عالم سحري يخرجه من عزلته، و يكسر قيوده الموصولة بإحباطاته و آلامه، التي تحولت إلى مجرد احتمالات، فتتراءى له حقيقة جديدة عن كتابة قصيدة مغايرة لم يألفها، و من بؤس القول يبدأ هذه الحقيقة الغير قارة في نفس الإنسان، لتتحقق أمانيه الضائعة و المبددة بين بؤس محتم و قدر بيد الله في مصالحته مع ذاته و الآخر و العالم و الوجود ... .

2- الشاعر النبي:

مذ أن نزل النبي آدم و حواء الأرض ، انطلقت مسيرة وجود الإنسانية ، بعد أن كان الله أوجده آنفا و سخر له الأرض حتى يعيش فيها ، ليختبر غرائزه وجسمه و روحه فيها، فيكتسب الطبيعة البشرية التي تميزه عن باقي الموجودات و الأشياء و الخلائق ، «فالإنسان يوجد أساسا-ثم يكون ، و هو يكون شيئا، يمتد بذاته نحو المستقبل ، و هو يعي أنه يمتد بها إلى المستقبل، فالإنسان مشروع يمتلك حياة ذاتية، بدلا من أن يكون شيئا.»[8] و لأن الإنسان عاقل ، فهو سيد اختياراته، و سلوكياته الناتجة عنه ، أي أن أفعاله هي من تشكل وجوده و مصيره ؛ و الشعراء هم فنانون بطبعهم يسعفهم حسهم المرهف النابع من ملكتهم الشعرية على القول ، و تجعلهم أكثر تأثرا بالأحداث و الوقائع؛ و كسائر البشر ، الحياة اختبرتهم، و أهدتهم تجارب سعيدة و مؤلمة فجرت طاقاتهم الشعرية.

و لأن المحن ليست حكرا على إنسان دون آخر، فقد تشارك الأنبياء مع الشعراء و سائر البشر الإحساس بالألم و المعاناة، و قاسوا من خداع الآخر، و عبث الحياة، و تصحر الأخلاق، و ضياع القيم...؛

و قد زخرت قصائد أديب كمال الدين بتناصات عديدة مع قصص تسرد محن الأنبياء،و ما مر عليهم من أهوال تحاكي عظم رسالتهم في الوجود، و قد استحضرها الشاعر لغايات فنية و تصويرية شعرية و رمزية، كما استطاع الشاعر من خلال سوق هذه القصص توضيح رؤيته عن جملة من التصورات منها الغربة و الوطن و الموت و فلسفته عن الإنسان والوجود و الكون... .

في قصيدته الأزلية يحملنا الشاعر إلى عالمه المتخيل، الغزير بالمعاني و الثري بالرموز و الإحالات على مدلولات مفتوحة، يلوح من وراءها تصوراته عن الإنسان الضال، الذي ضيع طريقه إلى الله،و بأسلوب رشيق يوائم فيه بين كثافة الصورة الشعرية، التي تفتح المعنى على أكثر من تفسير،و ابتهالاته الدينية ذات النفحات النورانية، ينقلنا الشاعر إلى عالمه المتخيل المرهون بمحن أزلية لم يسلم منها حتى أنبياء الله في الكون ؛ حيث يقول:

«هكذا ألقيت في الطوفان:
كان نوح يهيئ مركبه لوحا فلوحا
و يدخل فيه من كل زوجين اثنين.
كنت أصرخ،
يا رجلا صالحا،
يا رجلا مبحرا إلى الله
خذني معك. »[9]

استلهم الشاعر هذه القصة الدينية، ليحيل على معنى خاص يقصده أديب كمال، يعكس حالة الانكسار التي يحسها تجاه وطنه العراق و شعبه، وقد مد شعره بهذه القصص، لما يتميز به أسلوب القرآن من ثراء تصويري، ليستثمره في صقل موهبته الشعرية مستعينا بها« في تصوير مشروعه الشعري بدافع من هاجس المغايرة فكان خطابه الشعري حافلا بمختلف التقنيات الحديثة و أكثر ما يتجلى في مجال إنتاج الصورة الشعرية من مصادر شتى، لما لها من دور فاعل في تحويل النبضة الفكرية إلى نبضة جمالية.»[10] ففي محاولة منه للتنفيس عن مكنوناته النفسية يفكر الشاعر بصوت مرتفع ، فيسرد لنا الحقيقة المؤلمة عن العراق الضائع بين الأسر و بين شعبها الذي تمادى في ممارسة الفساد، ليجد الشاعر نفسه في وسط طوفان هائل ، أغرق العراق فهلك فيه من هلك من هذا الجنس الحيواني المفسد في الأرض ، فيصرخ الشاعر بأعلى صوته مناديا الرجل الصالح[*] بأن يحمله معه في سفينته مع الصالحين من العباد ، الذين آمنوا بالله و لم يظلموا في الأرض .

و في تصويره لمحنته ينقلنا الشاعر من الحاضر إلى الماضي، فيعود بنا إلى قصة سيدنا إبراهيم –عليه السلام- حينما ألقاه قومه في النار عقابا له على تحطيمه أصنامهم، بعد أن كان قد دعاهم إلى عبادة الله وحده و ترك عبادة الأوثان، فالشاعر يقاسم النبي إبراهيم إحساسه بالغدر و الحقد على قومه الذين ألقوه في نار ملتهبة استمر سعيرها أربعين يوما، فلولا فضل الله عليه و نعمته، لاحترق و صار رمادا ، لكن الله نجاه بإذنه تعالى من النار ، فكانت بردا و سلاما عليه، و لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه، يقول أديب كمال:

«هكذا ألقيت في النار:
بعدما أضرم النار أهل أور
لإبراهيم و ألقوه فيها،
انتهوا إلي .
كنت أغرق في الدمع من أجله.
قالوا: انه من أتبتاعه فألقوه في النار أيضا. »[11]

لم يكتف الشاعر باستحضار قصص من القرآن للتعبير عن رؤيته الشعرية إزاء قلقه الثقافي والفكري و الاجتماعي، بل انتقل الشاعر إلى موقع الحادثة و حضر بذاته المحترقة ألما و المتشظية حرقة

على ما يحدث لوطنه العراق، فيصف لنا جزعه، والدمع في عينيه؛ لأن النار التي اشتعلت لإبراهيم لم تحرقه-بإذن الله- و لكن غدر قومه و أسفه على حالهم كان أوقع بنفسه ، كيف لا و هو من سعى لهدايتهم، فكادوا له كيدا عظيما، ليأتي نصر الله له؛ فانه سبحانه قد قضى في قضائه، أنه من عادى له وليا فقد آذنه بالحرب. و قد شاركه أديب كمال محنته لأنه من أتباعه المخلصين، فمصيره لم يختلف عن مصير نبي الله إبراهيم.

فمذ أن عصفت بالعراق فتن، و انتهكت أرضه، وفرق شمله، و ضاع الطريق إلى خلاصه، لم يفارق الدمع عيني الشاعر و لا الحزن قلبه، و بقي حبيس نيران عذابه التي لم تهدأ و لم تنطفئ، ليتحول الألم والحقد على من ضيعوا العراق و فرطوا فيه بإهمالهم و خيانتهم له إلى سعير نيران متأججة لا هي بردا و لا سلاما عليه و لا على العراق وشعبه، الذين يعانون الويلات و الحرمان بتضييعهم رسم الجهاد و الذود عن الوطن، يقول الشاعر:

«قالوا : انه من أتباعه فألقوه في النار أيضا.
هكذا ألقيت في النار أيضا.
و إذا كانت النار على إبراهيم بردا و سلاما.
فإنها لم تكن لي
سوى نار من الألم و الحقد و الحرمان
اشتعلت،
و لم تزل تشتعل في
في كل يوم،
هكذا إلى يوم يبعثون!»[12]

و بنفس الأسلوب، يكتب الشاعر عن ألمه، حرفا بعد حرف، لتتوالى أبياته الشعرية و يستمر في سرد واقعه/المتخيل عن مأساته؛ فبلواه تخترق الزمان، وإحساسه بالظلم أبدي، وصفة الخداع و المكر متجذرة في المغلوبين الأسفلين؛ و في استحضار الشاعر لصور عن أنبياء الله تعرضوا للخديعة و الظلم من أقرب الناس لهم، سلوى لذاته المتشظية و المفككة بين ويلات الغربة، و تباريح الألم النفسي و الثقافي والفكري، الذي يعانيه الشاعر بسبب وعيه التام بمسببات طوفان نوح و النار التي ألقي فيها إبراهيم؛ وإخوة يوسف لما بغوا عليه و احتالوا له، فتركوه في غياهب الجب ...، فهو من قال:

«هكذا ألقيت في البئر:
ألقاني إخوتي
و عادوا إلى أبي عشاء يبكون.
قالوا: يا أبانا قد أكله الذئب.
فبكى أبي،
و كان شيخا جليلا،
حتى اخضلت لحيته بالأسى و الحروف.»[13]

و مرة أخرى يُكاد لهذا الشاعر كما مكر إخوة يوسف بأخيهم نبي الله، فهو في عظم محنته، و هول كربه يشبه الأنبياء، كما أنه في نبل دعوته و قداسة قلمه و حروفه، يشبهها بقدسية العقيدة و الدين الموحى سماويا، فهو خير خلف لخير سلف، لذلك كان الأقدر على تعرية الواقع و فضح ملابسات الحرب الهوجاء على وطنه، و ما تعرض له من مكائد، دفعت بحروفه المتتالية و مرموزاته الموحية، أن تتحول إلى قيد محكم على رقبة المخادعين و الموارين ممن كادوا للعراق و للشاعر من بني جلدته، ليضطر مغادرته والحسرة تملأ قلبه، فكما مكر إخوة يوسف به واحتالوا له، فجعلوه في باطن الأرض؛ يخلق لنا أديب كمال نظام إيحائي لرمز البئر هنا، يصل فيه الحاضر بالماضي، فيحمله بدلالات جديدة و متحولة، فهو ذات البئر المظلم و المخيف، و لكن يقين الشاعر بالخروج منه أمر نسبي مشكوك فيه، على خلاف سيدنا يوسف، الذي جعله الله على خزائن الأرض، بعدما جعله إخوته في باطن الأرض. يقول الشاعر:

«و تركوني في البئر
يمزقني الظلام و الخوف و الانتظار.
ربما سأخرج من البئر يوم يبعثون»[14]

يجد الشاعر نفسه أمام حالة من الإحباط النفسي، فهو مغيب في غياهب الجب، و مصيره غير واضح له، وأمله يزيد كلما طالت غربته، فيتحول الأمل إلى يأس،فتظل روحه أسيرة المكان (البئر/أستراليا)، و هي البلاد التي سافر إليها أديب كمال، ليرمز إلى البئر بالغياب لأنه المكان المفصلي، الذي حول حياة يوسف، لتأخذ منعرجا آخر ، فبعد أن وجده السيارة في قعر البئر، وأخذوه معهم إلى مصر، ليصبح عزيزها فيما بعد؛ أما بئر الشاعر، فلا يعرف متى يخرج منه، و يعود إلى وطنه العراق، و تنتهي عذاباته التي لم تهدأ، و قدره الذي فوضه لله .

3- تصورات أديب كمال عن ألم الإنسان:

إن القارئ لشعر أديب كمال يقف على مخزون من التجارب الشعورية و الخبرات البشرية، التي خاضها الشاعر طوال حياته، عاين فيها ألم الإنسان الفردية والجماعية المصرح بها و المضمرة، مما ولد في نفسه طاقة لدرء الألم بالألم، فاختار أن يرمز لهذه الآلام بتعابير فنية مخصوصة كالتناصات و التكرارات و الألوان، «فأشعاره كلها ناطقة بالإشارات المحيلة على المعاني الثواني البعيدة في سلسلة التلقي العتيد حتى الجمادات، و المعاني العقلية في شعره تنطق بقوة المجاز، و دلالة التشكيل المركب بما هو استثنائي فاعل في النمط المتعالي على اللغة الحقيقية.»[15] يوضح فيها تصوراته عن وجود الإنسان، و الكون والموت و الوطن...، مستعينا بإمكانات المتلقي التأويلية، وتوجه زاوية الوعي للقارئ و مقدرته على تأويل معناها.

1-1- الوجود الإنساني و الكوني:

إن كثافة الصورة الشعرية لدى أديب كمال، وتعدد دلالتها، التي تفتحها على أكثر من نظام إيحائي، يجعل حروفه متواترة في الزمن، تحيل على شتى التفسيرات، فتقلب على وجوه عدة من التأويل والقراءة، لكن حديثه عن ألم الإنسان و معاناته عبر العصور، و قلقه الوجودي و الكوني عبر مراحل حياته الطبيعية أخذت مسلكا واضحا–بالنسبة للشاعر- لأن الله قد خلق الإنسان جسم و روح، يتأثر بما حوله من طبيعة و مخلوقات و مجتمع و قوانين و سلطة... عبر بعدين : الأول منه جسماني و الثاني روحي نفسي، فوجود الإنسان يرتبط في الأساس بإحساسه بهذا الوجود، و الألم هو شعور متصل بالبعد النفسي والجسمي للإنسان معا، كما أنه يعد خبرة بشرية يجسدها السلوك بمختلف أشكاله؛ حيث يبدأ بإحساسه بالقهر ثم بالعزلة و الاغتراب الذي يؤدي إلى القهر التشاؤمي ثم الشعور بالظلم السوداوي الذي ينجم عنه السلوك العدواني، و تعذيب الذات إلى درجة الانتحار؛ كما يقدر الإنسان أن يتعايش مع ألمه، فيخلق له وجودا مختلفا عن ما كان عليه، فيصير لحياته معنى آخر مبني على ما خلفه الألم من حقائق جديدة تساعده على رسم مستقبل جديد له مختلف تماما عما كان يعيشه أو يعتقد به.«الفرد هنا يوجد في فوضى الزمن، و هو لا يوجد في المدة الزمنية و إنما في الاستمرار الملح للألم.»[16] فوعي الفرد بآلامه ومسبباتها و أثاره على نفسه و جسمه و حياته ومحاولته للتعايش معها أمر ضروري لوجوده.

و لما كان الشعور بالألم هو في حد ذاته مرتبط بعلاقة الإنسان (الأنا) بذاته و بالآخر في العالم؛ فانه كذلك يختبر أسمى قيمه و مقدساته الكبرى، التي شكلت ثوابت و حقائق يقينية في زمن ما، فعن حقيقة وجود الإنسان و الكون، يعود بنا الشاعر إلى

الألم الكبير الذي أحسه الإنسان الأول لما قطف الثمرة المحرمة، و أكلها فحكم عليه بالشقاء والعذاب بعد أن كان في جنات النعيم الأبدي لكن طمعه ووسوسة شيطانه، قد أخرجته من حياة السعادة إلى دنيا الشقاء و الألم، و تحول إلى إنسان بشري؛ حيث يقول:

«لم أجد أشد ثقلا من التفاحة
حين عرفت أن كل الحروب
بدأت من شهوتها:
شهوة الدم المتدفق كالشلال.»[17]

فاشتهاء التفاحة، هذه الثمرة المحرمة، فعل استحق العقاب الإلهي، لقمع الشر، فيكون إحداث الألم في حد ذاته نوعا من العدالة السماوية، يقصد منها طلب الغفران، و تقرب العبد إلى ربه. فالشاعر يرى أن ضعف سيدنا آدم أمام نفسه الأمارة بالسوء، وخرقه لأمر الله، نتج عنه وجود الكون و البشرية، فلولا هذا التجاوز و ما نجم عنه من عقاب رباني، لما نزل الإنسان إلى الأرض و سفكت دماؤه و انتشر الفساد و الظلم بين البشر. يقول أديب كمال متضرعا لله، عله يغفر للبشر خطاياهم:

«الهي،
هذه الحفلة،
أعني هذي الدنيا، خداعة.
لا يستلم من ضحكتها الملأى بالسفهاء
إلا من عرف المشي على الجمر
طوال العمر.»[18]

يواصل الشاعر سرده لحقائق عن الكون و الوجود الإنساني، فيبين لنا-مما لا مجال للشك فيه- أن الإنسان يوجد بالألم؛ و الألم هو الدائرة الكونية التي تحيط بحياة البشر، و هذا راجع لطبائعه الحيوانية المتأصلة فيه، فكلما فقد السيطرة العقلية عليها، تحكمت به فخرج عن السيطرة، غير مدرك للعقاب الرباني الملازم له؛ فعن حقيقة نهاية العالم و إعادة تشكله-رحمة من الله لعباده- يحدثنا عن فعل الإفناء الذي ألحقه الله بعباده الضالين جزاء بما كسبوا ونكالا لهم ، يقول الشاعر:

«تسللت إلى المركب: المعجزة.
و شاهدت مأثرة الحمامة و الغراب
بعدما صعد الموج بنا كالجبال،
حتى إذا هدأت العاصفة
و قيل يا أرض ابلعي ماءك،
هبط الكل من سفينة نوح
فرحين مباركين»[19]

فالشاعر يتألم و يتحسر على ما كان من أمر الله بإغراق قوم نوح بالطوفان، لما تمادوا في ممارسة الفواحش، فافسدوا في الأرض، و سفكوا دماء بعضهم البعض، فاختار الله منهم خلفاء له، حتى يواصلوا مهمة تعميرها، و قد نجّ الله مصدقيه و عباده المؤمنين ، فحق العذاب على من تمادوا و ظلموا.

ليكون نوح الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان، و هو من أوحي إليه أن يحمل في سفينته النسل المؤمن و المصدق بآيات الله، حتى تعمّر العراق و باقي أقطاب الأرض بخيرة البشر ؛ و لكن و مع مرور الزمن ، يعود الفساد في الظهور ، و الشاعر في قصيدته إشارة نوح يتبرأ منهم، و يبكي متضرعا لله أن يعود نوحا بسفينته ليحمله معه، و ينج من قومه الظالمين، فهو القائل:

«الهي،
أفنيت العمر كله
أنتظر نوحا
رغم أني أعرف أن نوحا
قد جاء و مضى.
هكذا فأنا منذ ألف عام

أجلس على الشاطئ وحيدا
أرسم فوق الرمل سفينة نوح
أو غراب نوح
أو حمامة نوح
أو ابن نوح
أو صيحات نوح.»[20]

فالوجود الإنساني مرتبط بمتلازمة الألم والعقاب والسعادة و الجزاء، و هي متغيرة على حسب طبيعة الذات البشرية و منطقه؛ لأن الحقيقة و المنطق متغيرة غير ثابتة، و لا تتسم بالكمال ؛ و إذا كان الألم سبلا من سبل الحقيقة المحتومة، الغير مطلقة، فان «الذات لها من الفاعلية ما يمكنها من الإلمام الكافي بما يتضمنه الوجود. »[21]فحقيقة وجود الإنسان و الكون مرهون بمدى تفاعل الذات البشرية مع الحقائق المؤلمة، التي هي جزء لا يتجزأ من حقيقة الوجود الكوني، و الكتابة عن وقع هذه الحقائق المؤلمة، هو بحد ذاته تجسيد للوجود الواقعي المتحقق.

2-1- ألم الموت:

الموت لفظة عبر عنها الشاعر بأساليب عدة، و لم يحبسها في كونها مظهر حتمي يوازي الحياة، فكل كائن حي لا بد أن تأتيه ساعة الموت، التي رمز لها بمرموزات كثيرة ؛ فهي ألم الفراق و البعد عن الديار و الأحبة، وهي الحادثة المشينة التي تحل بالأوطان و الشعوب فتكنسها في هدوء مريب؛ كما أن الموت هو تغييب للجسد دون الروح... هلم جرا من المعاني الكثيفة التي عبر عنها الشاعر في قصائده المتنوعة.

و قد استوحى أديب كمال الدين معانيه من أساطير بلاد ما بين النهرين كملحمة كلكامش[*] ، و آلهة الخصب و النماء[**]؛ لأن فكرة الموت في حضارته القديمة «لعبت دورا مهما، خاصة في ديانات الخصب التي تقوم أساسا على فكرة موت الطبيعة و بعثها المتكرر، الذي هو انعكاس لموت الإله و انبعاثه من جديد.»[22] و جميعها أساطير بابلية عراقية، تحكي قصص عن الاستمرارية في الوجود و الانبعاث والتجدد ، و قد ساقها الشاعر برؤية سوداوية مختلفة عن سياقها الأصلي، فهاهو ينعي (بابل/العراق) المعروفة بحدائقها القديمة و العجيبة، أختزلها الزمان و الأحداث و الصراعات إلى أصغر حديقة، فيقول:

«في حديقة : أصغر مما ينبغي،
قدام لحية كلكامش في المتحف العراقي
و فوق عشب أكله الحنين الرطب
و مزقه الدمع
و تحت غروب أثقل من الحجر،
ضيع الطفل دراهمه السبعة،
فبكى.
يا الهي، لم يبكي هذا الطفل؟»[23]

فهذه هي حال العراق اليوم، المتشحة بالسواد، والتي كافحت آلهتها و ملوكها، لأن تنمو و تزدهر، و أن تبقى على عهدها مع سر الحياة الأبدي، فهاهي اليوم تحيل تاريخها العتيد على متحف العراق، و تتحول إلى بلد يحيط به الموت من كل مكان، لتتعالى صرخات الأطفال اليتامى و المشردين لفقد الأهل و الوطن .

يواصل الشاعر التعبير عن حدة آلامه، في عبثية تامة من حالة الموت الذي هو شر عظيم، يقف أديب كمال منه موقف الإنسان اللامبالي، و الغير خائف منه، فيخاطبه قائلا:

«"مرحى" قلت للموت!
هل قلت للموت: "مرحى"؟
أم انه الموت
قال لي في برود:
أهلا و سهلا..؟»[24]

و يرجع السبب في استهتار الشاعر بظاهرة الموت، وترحيبه به، هو تحول حياته إلى مأساة، ليكون الموت في حالته هذه رحمة له؛ لأنه قد فقد معنى الحياة منذ زمن بعيد، حتى حالة الموت، التي هي خروج الروح من الجسد، قد ولى عهدها و استحالت شيئا مقدسا،

«في الطريق إلى الموت:
الموت القديم المقدس،
فاجأني موت جديد،
موت لذيذ بطعم السم،
موت لم أحجز له موعدا أو مقعدا.»[25]

فالشاعر يصف الحالة المزرية التي تعيشها الشعوب المحرومة و المظلومة و المستعبدة في أوطان تفتقر إلى أبسط شروط احتياجات العيش الكريم، لتتساوى الحياة مع الموت في مظاهرها البادية على معاش الأفراد و المجتمعات، فهم يشبهوا الجثث الحية التي تهيم على وجهها في الأرض، تتجرع مرارة الفاقة والاحتياج و الجهل... فالموت الطبيعي، الذي هو حالة ما بعد الحياة، افتقده أهل العراق.

و في سياق آخر يقصر الشاعر ظاهرة الموت على جسد الإنسان دون روحه، فهو برأيه –أي الجسد- ما يثنيه، و يجر عليه الويلات و الآثام إذا أطلق عنانه؛ فهو القائل:

«يا عبدي
من روض الجسد
فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها.
و من أطلق عنان الجسد
كان كالجمل الذي يموت عطشا
و الماء محمول على ظهره العطشان.» [26]

و بعدم إدراكه لسر الوجود، يكون قد ضيع زاده في الدنيا و الآخرة، و هو القائم في الروح و الجسد معا، فالموت كحالة تطال الجسم دون الروح، تحيل على كثير من المعاني منها: أن الفناء مقتصر على الجسد دون الروح، و أن «نزعة الموت أو غريزة الموت تمثل حاجة ملحة ملازمة لكل الكائنات الحية من أجل العودة إلى وضعية السكينة، أو عدم الوجود في نهاية الأمر،»[27] و هذا لن يحصل إلا إذا توفي الإنسان و فني جسمه، لتنتقل الروح إلى جوار ربها، و تلتحق بالرفيق الأعلى؛فلابد من ألم الموت وبلاء الجسد، حتى يستطيع الإنسان نوال الخلود الأبدي في جنات الله و نعيمه أو جزاءه جهنم و بئس المصير، يقول:

«أوقفني في موقف الروح
و قال: هو ذا سرك الأعظم يا عبدي.
فأنت لن ترى الروح حتى تموت
و الروح لن تراك.
لكنك ستتخيل الروح وردة تارة
و نهرت تارة أخرى.
.....
و الروح هي كأسي
و الكأس لي وحدي.»[28]

فالإنسان تحت الاختبار، لأنه في دار بلاء و امتحان ، ما يعني أن حياة الإنسان و أفعاله التي تشكل وجوده و مصيره، مرهونة باختيارات البشر الصحيحة والخاطئة ، و العقاب و الجزاء يكون من جنس العمل، و الموت شر لا بد منه ، أو هو عنف موجه نحو الجسم، تدفعه للفناء و التحلل، قصد إظهار جوهرها و سرها المكنون، ألا و هي الروح سر الكون الأعظم.

1-3- العراق الوطن الجريح:

الشاعر ذو تجربة استثنائية، أطل علينا بصورة شعرية درامية، تصور لنا مشاهد عن الوطن الضائع و الجريح، و هو في حديثه عن بغداد لم يخالف مذهب الشعراء في رثائها و نعي تاريخها و أمجادها، لكنه تفرد بتشكيله الجمالي لحروفه، الذي تسربل

بالألم، و في تناغم تام بينهما، تلوح لنا لوحات الشاعر المأساوية عن الوطن العراق، فهو القائل:

«بغداد،
دماؤك سالت في الشارع للرائح و الغادي.
كيف سيوقفها الفقراء العزل؟
بأي حروف و دواء و تعاويذ؟
كيف؟
و بغداد هاجمها كل ذئاب الكون،
نهشوا وجنتيها، شفتيها،»[29]

فبراعة الشاعر تكمن في قدرته على تشكيل صور شعرية، تحاكي واقعية الخيانة التي تعرض لها وطنه، وبث مشاعره المتأسية على ما آل إليه وضع البلاد، فبعد أن كانت منارة العلوم و قبلة العارفين و النساك والطلاب، تحولت إلى وكر للأوغاد والطامعين والمفسدين و الخونة.

«بغداد.
الحقد شديد.
نعم، و الألم شديد.
و القتلى انتشروا دون رؤوس
في كل مكان من جسدك.
و الفقراء العزل
سقطوا من فوق الجسر و من تحت الجسر،
و في جامعة المستنصر بالله، »[30]

و حتى في غربته؛ الشاعر لم يثن عزمه عن التعبير عن نزيف روحه، لمأساة العراق الوطن، و بقي يحن إلى طفولته و مسقط رأسه، الذي غادره جسدا و بقيت روحه تحوم بالمكان تبكي حالها،

«حين أحبو
ثم أخطو قليلا قليلا،
تسلقت شجرة الطفولة
بعينين فرحتين تتطلعان إلى بهجة التفاح
و فرح الموز.
كنت أصعد و أصعد
و دعوات جدتي
تدفعني أعلى فأعلى.
لكن، على حين غرة، ماتت جدتي.
فسقطت، وا أسفاه، من شجرة الطفولة. »[31]

خاتمة:

وفي الختام إن الاكتفاء من قراءة شعر أديب كمال الدين ضرب من العبث، و لكن لابد لنا أن نخلص إلى جملة من النتائج عن هذا البحث المسترسل عن تفاعل الكتابة مع الألم في شعر أديب كمال، و الذي رصدنا فيه بعض النقاط المهمة ، منها:

- أن الشاعر ندد و بشدة الانتهاكات العديدة والمختلفة ضد وطنه العراق و شعبه.
- أننا و قفنا على أشكال عدة للألم في حروفية الشاعر، و هذا راجع إلى غزارة تجربته الشعرية ، التي صهرت لنا صورا درامية عن المعاناة و الألم.
- إن الكتابة-عند الشاعر- مكسب إبداعي يصل بينه و بين نفسيته، و بينه و بين متلقيه.
- إن تفاعل الكتابة مع الألم في شعر أديب كمال غذاه إحساسه بالغربة و الظلم والموت، فأوجد لنا نوعان من الألم: جسدي وروحي.
- أن قصائد الشاعر زخرت بتناصات مختلفة، تقص لنا محن أزلية متعلقة بالإنسان و وجوده الكوني.
- حظيت مشاعره بالحنين إلى وطنه، و أسفه على ما آلت إليه حالته المأساوية على مساحة كبيرة من شعره.

- تمكن الشاعر من كتابة لغة تقول الألم، عبر بثّ رؤيته الشعرية إزاء قلقه الثقافي و الفكري الوجودي و الاجتماعي.
- نذر الشاعر قلمه للكتابة عن آلامه المستعصية، عله يجد متنفسا له، و مخرجا لأزماته المتكررة عن تجاربه الشعورية إزاء (الذات،الآخر،العالم،الكون،الوجود...)، عبر سعيه و بخطى حثيثة للتعايش مع ألمه، وكتابة حقيقة جديدة مغايرة عن وجوده، وإن كانت مؤلمة.

إن قراءتي لشعر أديب كمال، قد فتحت لي نافذة على هموم الشاعر التي تمحورت حول قضايا الوطن الجريح و غربة الشاعر و الموت المحيط بالمكان والألم... و هذه المأساة التي يتخبط فيها الشاعر هي أغلبها قضايا كبرى عالجها الشعراء المعاصرين في قصائدهم.

كما أتاحت لي هذه المقاربة الوقوف على تفاعل الكتابة عنده بالألم ،الذي هو شعور طبيعي للإنسان، مع فعل الكتابة التي جعل منها قناة إبداعية تعبر عن همومه و انشغالاته المحمومة عن الوجود و العالم والإنسان ؛ و هذه القراءة تبقى مفتوحة على أقلام الدارسين و النقاد قصد الاشتغال عليها.

الهوامش والإحالات:

(1)- جان بول سارتر (1966)،الوجود و العدم بحث في الانطولوجيا الظاهراتية، تر: عبد الرحمان بدوي، دار الآداب ، ط1 ، بيروت، ص 575 .

(2)- أديب كمال الدين(2018)، الأعمال الشعرية الكاملة، مج3، منشورات ضفاف، ط1 ، بيروت، ص 143، 144 .

(3) – أديب كمال الدين(2018)،الأعمال الشعرية الكاملة، مج4، منشورات ضفاف ، ط1 ، بيروت، ص 40.

(4) – المصدر السابق، مج3 ، ص 32 .

(5) – عادل صادق(1986)،الألم النفسي و العضوي ، توزيع الأهرام، ص 30 .

(6) – المصدر السابق ، مج3 ، ص 32 ، 33 .

(7) - المصدر نفسه ، ص 32،33 .

(8) - جان بول سارتر(1964)،الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحنفي، الدار المصرية للطبع و النشر ، ط1 ، ص 15 .

(9) – المصدر السابق، مج3، ص 23 .

(10) - نعيم عموري ،<التناص القرآني في أشعار أديب كمال الدين> ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، ع47 ، 2017، ص 211 .

(*) - الرجل الصالح أو الحكيم كما جاء في الأساطير و التراث القديم هو نوح عليه السلام.

(11) – المصدر السابق ، مج3، ص24، 25.

(12) – المصدر نفسه، ص25.

(13) – المصدر نفسه ، ص 25.

(14) – المصدر نفسه، ص26.

(15) – عبد القادر فيدوح(2016)،أيقونة الحرف و تأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف ، ط1 ، لبنان، ص 11.

(16) – دافيد لوبروطون:تجربة الألم بين التحطيم و الانبعاث،(2007)، تر: فريد الواهي، دار توبقال للنشر ، ط1 ، الدار البيضاء، المغرب، ص 31.

(17) – المصدر السابق، مج4، ص 246.

(18) – المصدر نفسه، ص 305.

(19) – المصدر نفسه،مج3، ص 23 .

(20)- المصدر نفسه ، مج4، ص212.

(21) – علي هاشم طلاب الزيرجاوي : <المكان الضيق في ضوء التأويل الظاهراتي أديب كمال الدين اختيارا> ، مجلة جامعة ذي قار، جامعة المثنى كلية التربية للعلوم الإنسانية، ع1،مج14 ، 2019 ص 115 .

(*) - قصيدة ملحمية من آداب بلاد الرافدين القديمة.

[(**)] - هي عشتار آلهة الحب و الجمال و توصف بالخصب والنماء عند السومريين.

[(22)] – أمل مبروك: فلسفة الموت/ دراسة تحليلية،(2011) ، التنوير للطباعة و النشر، بيروت ، لبنان، ص27.

[(23)] – المصدر السابق، مج3،ص 126.

[(24)] – المصدر نفسه،ص 139.

[(25)] – المصدر نفسه ، مج4، ص 138.

[(26)] – المصدر نفسه،مج4، ص46.

[(27)] - علي هاشم طلاب الزيرجاوي: المكان الضيق، المرجع السابق ، ص 127.

[(28)] – المصدر نفسه ، مج4، ص 47

[(29)] – المصدر نفسه،مج3، ص 38، 39.

[(30)] – المصدر نفسه ، مج3، ص 40.

[(31)] – المصدر نفسه، ص 27.

قائمة المصادر والمراجع

أديب كمال الدين(2018)، الأعمال الشعرية الكاملة، مج3، منشورات ضفاف، ط1 ، بيروت

أديب كمال الدين(2018)،الأعمال الشعرية الكاملة، مج4 ، منشورات ضفاف، ط1، بيروت

أمل مبروك: فلسفة الموت/ دراسة تحليلية،(2011) ، التنوير للطباعة و النشر، بيروت ، لبنان

جان بول سارتر(1964)،الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحنفي، الدار المصرية للطبع و النشر، ط1

جان بول سارتر (1966)،الوجود و العدم بحث في الانطولوجيا الظاهراتية، تر: عبد الرحمان بدوي ، دار الآداب ، ط1 ، بيروت

دافيد لوبروطون:تجربة الألم بين التحطيم و الانبعاث ، (2007)، تر: فريد الواهي، دار توبقال للنشر ،ط1 ، الدار البيضاء، المغرب

عادل صادق(1986)،الألم النفسي و العضوي ، توزيع الأهرام

عبد القادر فيدوح(2016)،أيقونة الحرف و تأويل العبارة الصوفية في شعر أديب كمال الدين، منشورات ضفاف ،ط1، لبنان

– **المجلة:**

علي هاشم طلاب الزيرجاوي : <المكان الضيق في ضوء التأويل الظاهراتي أديب كمال الدين اختيارا> ، مجلة جامعة ذي قار، جامعة المثنى كلية التربية للعلوم الإنسانية، ع1،مج14 ، 2019

نعيم عموري ،<التناص القرآني في أشعار أديب كمال الدين> ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، ع47 ، 2017